د. محمد شوقي الزين

مناهج فلسفية معاصرة

الحصة الخامسة

التأويلات التفكيكية

النَّص مِنْ مَنْظُور تَفْكِيكي

- النص هو نسيج من العلامات، وفكرة النسيج تساعدنا على فهم ما المقصود بالتفكيك. لأن في حقيقة الأمر، وخلافاً للفكرة الشائعة (والخاطئة في جوهرها) لا يعني التفكيك بتاتاً الهدم، ولكن «**التقطيع**» (découpage). لنأخذ مثال القماش لنبقى في فكرة النسيج التي هي جوهرية في بنيتها ووظيفتها. عندما نقوم بقص القماش فإننا نصنع وحدات يمكنها أن تكون نماذج لفساتين أو سراويل يستعملها مصمّمو الأزياء. يتواقت في هذه العملية قطع شيء بتركيب شيء آخر. هذا المراد بالتفكيك في دلالته المبدئية. فهو بشكل من الأشكال تقطيع النص إلى وحدات أوَّلية، وما ينقطع عن النص هو نص جديد يتمُّ تركيبه، مثلما أن قص القماش ينجرُّ عنه قماش آخر مختلف في الشكل والهيئة.

نَسِيجُ التَّفْكِيك مِنْ تَفْكِيك النَّسِيج

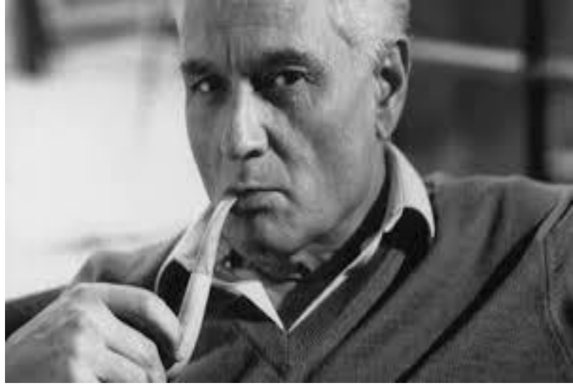

- لقد أشار دريدا إلى فكرة النسيج في تقطيع النص بهذه الفقرة من «صيدلية أفلاطون»: **«إنَّ حَجْب النَّسِيج يمكِنُه أنْ يَسْتَغرِقَ قُرُوناً عَدِيدَة في حَلِّه. يَنْطَوي النَّسِيج عَلَى نَسِيج آخَر وَيَسْتَغْرِقُ حَلّه قُرُوناً عَدِيدَة بِإعَادَة تَشْكِيله كَجسْم حَيّ (...) لا يَتَعَلَّق الأمْرُ بالتَّطْرِيز، إلا إذَا مَا اعْتَبَرْنا أنَّ مَعْرِفَة التَّطْرِيز هِيَ أيْضاً أنْ نَتَمَكَّن مِنْ مُتَابَعَة الخَيْط المَمْدُود»**؛ وفي نصّ آخر يشتمل على عنوان فرعي «السرّ الآخر للنسَّاج» يكتب دريدا: **«مَا نسَمِّيه "التَّفْكِيك" يخْضَعُ بلا شَكٍّ إلى مُقْتَضَيَات التَّحْلِيل، في الوَقْت نَفْسِه مُقْتَضَيَات نَقْدِية وَتحْلِيلِيَّة».** جاك دريدا، «صيدلية أفلاطون»، في كتابه **التشتُّت**، باريس، سوي، 1972، ص79؛ الترجمة العربية لكاظم جهاد، تونس، دار الجنوب للنشر، 1998، ص13 (ترجمتي معدّلة عن ترجمة كاظم جهاد).

التَّفْكِيكُ مُمارَسَة مِثْل عمَليَّة النَّسْج

- إذا كان دريدا يقول بأن التفكيك ليس نظرية ولا منهجاً ولا تأويلاً ولا نقداً ولا حتى نقد النقد، فإن التفكيك هو في نهاية المطاف **«ممارسة»** تعمُّ كل السلوكيات البشرية على غرار النسَّاج في مهارته الذكية في عقد الخيوط وفكّها. وعندما «ننسج» فإنَّنا نمارس ولا نتأمَّل. الممارسات البشرية كلُّها هي «تفكيكات» في شكل عقد وحل، وصل وفصل، ترقيع وتقطيع، تطبيع وتنقيع، أيّاً كانت المواضيع التي تستهدفها.

- إذا كان دريدا يعتبر أن النص يفتقر إلى هوية، سائراً بذلك على خطى القائلين بنهاية المؤلف مثل رولان بارت في الأدب أو ميشال فوكو في تاريخ الأنساق المعرفية، فلأن النص الثانوي الناتج عن النص الأصلي يشتمل على وحدات أصلية لا تنتمي إليه بجذافيرها. مثلاً، عندما نقرأ أيَّ نص لكاتب أو فيلسوف فإن ما كتبه هو حبائك من الأفكار والمقولات والمفاهيم، بعضها لأسلافه وبعضها لمعاصريه، وبعضها الآخر من ابتكاره. فما يشتمل عليه نصُّه ليس أصالة مطلقة، وإنَّما تقطيعات من النصوص الأخرى في شكل «تناص» أو «اقتباس».

النَّص قِطْعَة ومُقَاطَعَة مِن نُصُوص أخْرَى

- هناك نوع من «المفارقة» بين كون النص الثانوي ضاحية جديدة من ضواحي النص الأصلي أي قطعة جديدة ومقاطعة مضافة، وكونه مجرَّد شبكة من الحقائق والمفاهيم والفرضيات البرَّانية. لكن ليس هذا التناقض الظاهري أمراً سلبياً في حد ذاته، بل هو ما يميّز كل ظاهرة أو فكرة.

- لا شك أن دريدا أعاد استثمار الديالكتيك الهيغلي، أو «الأوْفيبُونْغ» (*Aufhebung*)، لكن حسب معقولية جديدة لا تؤول إلى العلم المطلق باحتواء التناقضات، بل يحافظ دريدا على التشتُّت في الظواهر والمظاهر بوصفه أصل الحركة وباعث الإرادة. إن الأمور المنتقاة التي تغمر النص وتؤثّث أركانه هي زوائد مقطوعة من النص الأصلي**«إذَا جَازَفْتُ بتَعْرِيفٍ وَاحِدٍ للتَفْكِيك، تَعْرِيف مُوجَز وَمُضْمَر وَمُقْتَصَد ككلمة إشَارَة، أقُول بدُون جملة: إنَّه أكْثَر منْ لُغَة»** والمزروعة (*greffé*) في النص الثانوي عبّر عنها دريدا بتعريف مقتضب هو «أكثر من لغة» : (جاك دريدا، **ذاكرات من أجل بول دي مان**، باريس، غليلي، 1988، ص38).

أَكْثَر مِنْ لُغَة

- لقد بيّن **جون غروندان Jean Grondin** («تعريف دريدا للتفكيك: مساهمة في التقريب بين الهيرمينوطيقا والتفكيك»، مجلة **أرشيفات الفلسفة**، عدد 62، 1999، ص5-16)، أستاذ الفلسفة في جامعة منتريال بكندا ومتخصص في غادامير، أن عبارة «أكثر من لغة» تشتمل على مفارقة لأنها تعني في الوقت نفسه **التعدّد** (أكثر من لغة، معناه لغات عديدة) وأيضاً **النفي**: لأن المفردة في الفرنسية (*plus de*) تعني أيضاً «لا شيء». ومن ثم، ينبغي لغات عديدة لفهم معضلة الوجود، وأيضاً ولا لغة يمكنها إدراك هذه المعضلة. فإذا كانت لغات العالم كلّها (على غرار برج بابل) لا يمكنها الوقوف على حقيقة الوجود، فإن حقيقة هذا الوجود ليست لغوية، بل إدراكه يتمّ بأساليب أخرى غير اللغة، في شكل حدس أو ذوق أو خبرة أو تجربة، أي في شكل ممارسة كالتي تعبّر عنها استعارة «النسّاج».
- فاللغة، النص والكتابة، ليست مقولات أو لفظيات أو تركيبات نحوية، بل هي مرئيات، هي ما تراه العين، ما تسمعه الأذن، ما يلمسه الجسد، هي إذاً التجربة، الممارسة.